منهج الجرجاني في الكشف عن وجوه الإعجاز القرآني

AL JARJANI APPROACH IN REVEALING TYPES OF QURANIC MIRACLE

الطالب: عبد العزيز باجي **St. Abdelazize BADJI**

جامعة أحمد بن بلة – وهران1 **Univ. Ahmed B. Bella, ORAN1**

hajeaziz5@gmail.com

الدكتور: عبد الغفار بن نعمية **Dr. Abdelghaffare BEN NAMIA**

جامعة أحمد بن بلة – وهران1 **Univ. Ahmed B. Bella, ORAN1**

bnnamia@yahoo.fr

Received*:** استلم: ***Accepted: قُبل للنشر:

ملخص:

يعتبر إعجاز القرآن وتحديهم للعرب بالأصالة ولغيرهم بالتبع في مجال البلاغة والبيان،من القضايا التي تبارى فيها العلماء،كل يريد فضل السبق، واستخراج درر القرآن وكنوزه، والوقوف عند وجوه إعجازه، ومن العلماء الذين كتبوا في هذا المجال الشيخ عبد القاهر الجرجاني، خاصة في كتابه دلائل الإعجاز، وقد عُرف الشيخ بدفاعه عن نظرية النظم،موضحا مكمن إعجاز القرآن،بالحجة المنطقية ،والصنعة البيانية،منتقدا ومجادلا تارة، وموضحا ومفسرا لأوجه إعجاز القرآن الكريم تارة أخرى.

الكلمات المفتاحية: الجرجاني؛ الإعجاز القرآني؛ الكشف؛ البلاغة؛ البيان؛ النظم.

Abstract:

The miracle of QURAN and their challenge to Arabs originality and to other followers in the field of rhetoric and the statement of the issues in which scientists compete,everyone wants the virtue of the sward and to extract QURAN and its treasures and stand when there is miraculous and from the scholars who wrote in this field, SHEIKH ABDUL QAHIR AL JARJANI, especially in his book: Signs of miracls. Sheikh was know for his defense of system's theory, explaining the mean miracl of QURAN logical argument and grafic work criticizing and arguing at times,explaining facets of miracle's QURAN at other times.

Key words : *Jerjani; Quranic miracle; detection; rhetoric; the statement; en-nadhm.*

مقدمة

من القضايا التي كانت ولا تزال محل بحث لدى العلماء؛ ما يسمى بإعجاز القرآن الكريم الذي على وفقه كان تحدى البلغاء والفصحاء والعرب أجمعين أن يأتوا بمثله؛ فما استطاعوا لذلك سبيلا؛ ونظرا لتشعُب الآراء واختلافها حول مكمنه ومحلّ وجوده في القرآن وعلى وفق تخصصاتهم؛ واختلاف مشاربهم؛ ومعتقداتهم؛ فمن العلماء الذين أسهموا في هذا المجال عبد القاهر الجرجاني؛ الذي نجتهد في الكشف عن شخصيته ونظرته للإعجاز؟ و منطلقاته فيه؟ ومنهجه في الكشف عن وجوه إعجاز القرآن؟

ترجمة الشيخ الجرجاني:

اشتهر الإمام الجرجاني بخدمته الكبيرة للغة العربية؛ ولاسيما للجانب البلاغي منها، تناولته كتب التراجم بالتعريف والكشف عن حياته؛ وسأحاول في ما يلي تسليط الضوء على بعض الجوانب من شخصيته.

اسمه ونسبته:

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني[1]؛ ويلقب بشيخ العربية[2] ولم تعرف سنة ولادته؛ ويمكن تحديد فترة حياته؛ اعتمادا على سنة وفاته؛ فقد عاش في مطلع القرن الخامس الهجري؛ أما نسبته لجرجان فهي مكان ولادته؛ وهي معروفة بالعلماء والأدباء،قال الحموي :" وجرجان مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من هذه؛ وقيل إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة؛ وقد خرج منها خلق من الأدباء؛ والعلماء؛ والفقهاء والمحدثين"[3].

كما أنها عرفت بجمالها؛ وطيب أخلاق أهلها؛ يقول الحموي: "ولجرجان مياه كثيرة وضياع عريضة وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسنا من جرجان على مقدارها وذلك أن بها الثلج والنخل؛ وبها فواكه الصرود والجروم؛ وأهلها يأخذون أنفسهم بالتأني والأخلاق المحمودة؛ قال وقد خرج منها رجال كثيرون موصوفون بالستر والسخاء"[4].

---

(1) سير أعلام النبلاء ج 14ص433
(2) نفس المصدر ج14ص433
(3) معجم البلدان، ج2ص119، 120
(4) معجم البلدان ج2ص119، 120

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه:

للإمام الجرجاني مكانة علمية ولا أدل على ذلك من ثناء العلماء عليه ،ومن ذلك :

تلقيبه بالإمام؛ "وهو من كبار أئمة العربية" [1].

وقال عنه السبكي:" وصار الإمام المشهور المقصود من جميع الجهات؛ مع الدين المتين؛ والورع والسكون."[2]

وقال الأبيوردي:" ما مقلت عيناي لغويا؛ وأما في النحو فعبد القاهر." [3]

شيوخه وتلامذته :

لم تذكر كتب المصادر التي وقعت بين يدي العلماء الذين تتلمذ عليهم الشيخ الجرجاني؛ غير شيخين كان لهما الأثر البالغ في حياته؛ وهما:

– أبو الحسين محمد بن حسن بن أخت الأستاذ أبي علي الفارسي؛ أخذ عنه النحو بجرجان

–"علي بن عبد العزيز الجرجاني بن الحسن بن علي؛ ابن اسماعيل الجرجاني أبو الحسن قاضي الري في أيام الصاحب بن عبادٍ؛ وكان أديباً؛ أريباً، كاملاً؛ مات بالري يوم الثلاثاء لستٍ بقين من ذي الحجة؛ سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائةٍ ... وكان الشيخ عبد القاهر الجرجاني قد قرأ عليه واغترف من بحره، وكان إذا ذكره في كتبه تبخبخ به؛ وشمخ بأنفه بالانتماء إليه"[4] لكن ذكره في تلمذته نظر؛ لأن الجرجاني توفي سنة 474هـ وحتى لو أدركه وهو مستبعد؛ فقد كان صغيرا عن الطلب.

تلامذته:

تتلمذ على يديه الكثير من العلماء ،منهم :

– علي بن محمد بن علي أبو الحسن بن أبي زيد الفصيحي؛ الإستراباذي؛ قرأ النحو على عبد القاهر الجرجاني؛ وأخذ عنه ملك النحاة والحيص بيص توفي سنة ست عشرة وخمس مائة[5].

---

(1) فوات الوفيات ج2ص369

(2) طبقات الشافعية ج5، ص 150

(3) نفس المصدر ج5ص 150

(4) معجم البلدان ،ج 2ص 91

(5) الوافي بالوفيات ج22ص 56

-أبو المظفر محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد الأبيوردي أخذ عنه النحو؛ قال عن شيخه: ما مقلت عيني لغويا؛ وأما في النحو فعبد القاهر." [1]

مؤلفاته:

ألف الإمام الجرجاني مصنفات كثيرة في اللغة؛ والبلاغة؛ والنحو؛ والتفسير؛ منها:

- كتاب المغني شرح المبسوط في نحو ثلاثين مجلد[2]

-دلائل الإعجاز وهو مطبوع بتعليق محمود شاكر

-تفسير سورة الفاتحة في مجلد [3]

-المقتصد تلخيص المغني [4]

وفاته: توفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة وقيل : سنة أربع وسبعين – رحمه الله[5]

مفهوم الإعجاز عند الجرجاني:

ينطلق الإمام الجرجاني في بيانه للإعجاز القرآني من أن القرآن تحدى العرب ببلاغته وبيانه من جنس ما برعوا فيه مستشهدا بآيات من القرآن الكريم؛ غير أنه يشترط شروطا ينبغي أن تتوفر في الإعجاز؛ مبتدئا بتفسير التحدي؛ فيقول:"يقال لهم إنكم تتلون قول الله تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله**﴾ [الإسراء 88] وقوله عز وجل :﴿**قل فاتوا بعشر سور مثله** ﴾ [هود 13] وقوله: ﴿**بسورة من مثله**﴾ [البقرة 23].

ثم يوضح شروط الإعجاز؛ التي تتمثل في التحدي بالوصف المماثل للقرآن؛ ، على أن يكون معلوما لدى المخاطب،؛ فيقول :"فقولوا الآن أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يتحدى العرب إلى أن يعارضوا بمثله؛ من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذي إذا أتوا بكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله؟ ولابد من

(1) طبقات الشافعية ،ج 5 ص150

(2)كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ج 1ص211

(3) سير أعلام النبلاء، ج 18ص 433.

(4) نفس المصدر،ج 18ص433

(5) سير أعلام النبلاء ج 18ص433

لا؛ لأنهم إن قالوا يجوز أبطلوا التحدي من حيث إن التحدي –كما لا يخفى– مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف؛ ولا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوما للمطالب؛ ويبطل ذلك دعوى الإعجاز أيضا وذلك أنه لا يتصور أن يقال إنه كان عجز حتى يثبت معجوز عنه معلوم؛ فلا يقوم في عقل عاقل أنه يقول لخصم له قد أعجزك أن تفعل مثل فعلي؛ وهو لا يشير له إلى وصف يعلمه في فعله ويراه قد وقع عليه..."[1]

فيشترط في الإعجاز وجود التحدي؛ والوصف المتحدَى به؛ وعلم المخاطب بالوصف؛ ويستدل على ذلك بالحجج العقلية؛ والأدلة المنطقية؛ لاسيما وأن المخاطبين زمن تنزل الخطاب هم أهل الفصاحة؛ وأرباب البيان؛ وتحديهم هو تحد بالتبع لمن بعدهم ممن لا يملك ناصية اللغة؛ ولا يستقيم له لسان؛ يقول الجاحظ:" ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز؛ ومن المنثور والأسجاع؛ ومن المزدوج وما لا يزدوج؛ فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق؛ من الديباجة الكريمة؛ والرونق العجيب؛ والسبك والنحت؛ الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم؛ ولا أرفعهم في البيان؛ أن يقول في مثل تلك؛ إلا في اليسير؛ والنبذ القليل [2]"ويؤكد الجرجاني إعجاز القرآن للعرب بقوله:"أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن؛ وظهرت وبانت وبهرت؛ هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر؛ ومنتهيا إلى غاية لا يُطمَع إليها بالفكر؛ وكان محالا أن يعرف كونه كذلك؛ إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب؛ وعنوا الأدب؛ والذي لا يُشَك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان؛ وتنازعوا فيهما قصب الرهان [3]".

ويلاحظ أن فكرة الإعجاز عنده إنما تدور بالأساس على نظرية النظم؛ إذ لا فضيلة للكلمة بمفردها دون حسن اختيار تركيبها وحسن نسقها وتجاورها؛ ولعل من الإنصاف أن إعجاز القرآن بالنظم لم تكن وليدة الجرجاني بل سبقه لها كثير من الأدباء.

(1) دلائل الإعجاز ص385 ، 386
(2) البيان والتبيين ص405.
(3) دلائل الإعجاز ص 8، 9

نظرية النظم قبل الجرجاني:

يبدو تأثر الجرجاني بمن سبقه واضحا في مسألة النظم؛ لاسيما و قد صرح بسبق العلماء له وتنويههم به؛ يقول: "وقد علمتَ إطباقَ العُلماءِ على تعظيمِ شأنِ النَّظْمِ؛ وتفخيمِ قَدْرِهِ والتَّنويهِ بذكرِهِ وإجماعِهم أنْ لا فضلَ معَ عَدمِه ؛ ولا قدرَ لكلامٍ إذا هو لم يستقمْ لَهُ ولو بلغَ في غَرابةِ معناهُ ما بلغ . وبَتَّهُم الحكمَ بأنه الذي لا تَمامَ دونَه ولا قِوامَ إلا بهِ وأنه القُطب الذي عليه المدارُ؛ والعمودُ الذي به الاستقلال[1]". ولعل ممن تكلموا في نظم القرآن إبراهيم بن سيار النظام **ت 231هـ**؛ غير أنه يرى بالصرفة :" وقال النظام الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب؛ فأما التأليف والنظم والأسلوب؛ فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد؛ لولا أن الله صرفهم عن الإتيان بمثله."[2]

ولكن تلميذه الجاحظ **ت 255 هـ** لا يوافق شيخه؛ ويرى إعجاز القرآن بالنظم؛ ويصنف كتابة المفقود؛ إعجاز القرآن بالنظم؛ ويقول في كتابه البيان والتبيين:" ألا ترى أنا نزعم أن عجز العرب عن مثل نظم القرآن حجة على العجم من جهة إعلام العرب العجم أنهم كانوا عن ذلك عجزة" [3]

وصنف الإمام الواسطي **ت 306هـ** كتابه إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه؛ وابن جرير الطبري **ت 310 هـ** حين قال:"ومن أشرفِ تلك المعاني التي فَضَل بها كتابُنا سائرَ الكتب قبله؛ نظْمُه العجيبُ ورصْفُه الغريب؛ وتأليفُه البديع؛ الذي عجزتْ عن نظم مثْلِ أصغرِ سورة منه الخطباء؛ وكلَّت عن وَصْف شكل بعضه البلغاء، وتحيَّرت في تأليفه الشُّعراء، وتبلَّدت –قصورًا عن أن تأتيَ بمثله– لديه أفهامُ الفُهماء؛ فلم يجدوا له إلا التسليمَ والإقرار بأنه من عند الواحد القهار. [4]"

وهكذا توالت تفاسير العلماء لوجوه إعجاز القرآن؛ وتعددت أقوالهم؛ وليس المقصود من هذه الدراسة حصرها واستقراؤها؛ وإنما التنبيه على أن القرآن معجز بنظمه؛ تكلم عنه كثير من العلماء قبل عبد القاهر الجرجاني؛ وإن كان مفهوم النظم عندهم لم يتجاوز التأليف؛ وحسن التركيب؛ فهل أضاف الإمام الجرجاني للنظم معان جديدة ؟،وأسس لنظرية النظم ؟ أم أنه لم يتجاوز ما ذكره السابقون قبله؟

---

(1) دلائل الإعجاز ص 80

(2) مقالات الإسلاميين ج1ص179

(3) البيان والتبيين، ص527

(4) جامع البيان في تفسير القرآن ج1ص199

مفهوم النظم عند الجرجاني:

يمهّد الإمام الجرجاني في معرض حديثه عن النظم بتسائله عن مزية الكلم؛ هل هي للفظ أم للمعنى؟ قائلا:" "فقيل لنا قد سمعنا ما قلتم؛ فخبرونا عنهم؛ عن ماذا عجزوا؟ أعن معان من دقة من دقة معانيه؛ وحسنها وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ فإن قلتم عن الألفاظ فماذا أعجزهم من اللفظ؟أم ما الذي بهرهم منه؟ فقلنا أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه؛ وخصائص صادفوها في سياق لفظه... "[1]

فالنظم عنده ليس هو مجرد التأليف والتركيب؛ كما ذهب إليه المتقدمون؛ بل هو انتقاء الكلمات قبل وضعها في التركيب؛ وحسن ملاءمتها في الترتيب؛ ويوضح هذا المعنى بقوله :"وتختار له اللفظ الذي هو أخص به؛ و أكشف عنه وأتم له؛ وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية؛ فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف؛ وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم [2] ..." ولعل اختيار الكلمات تكلم عنه غير واحد قبل الجرجاني وفي هذا الصدد يقول الجاحظ :"ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما؛ فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف؛ ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما؛ ويهجنهما؛ وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل ان تلتمس إظهارهما؛ وترتهن نفسك بملابستهما؛ وقضاء حقهما [3]" ولئن سُبق إلى انتقاء اللفظ؛ فإن النظم عنده لا يقتصر على جمال الألفاظ فحسب؛ بل وضعها في مكانها اللائق بها من غير تقديم أو تأخير؛ بحيث لا يرى المخاطب أن هذا اللفظ لا يمكن أن يستبدل بغيره؛ ولعلّ الدراسات القرآنية الحديثة تؤكد صحة نظرة الجرجاني؛ واحتلال المفردة القرآنية لأنسب مكان لها؛ يقول فاضل السامرائي:"ولاشك أن كل مفردة وضعت وضعا فنيا مقصودا في مكانها المناسب؛ وإن الحذف من المفردة مقصود؛ كما أن الذكر مقصود؛ وإن الإبدال مقصود؛ كما أن الأصل مقصود؛ وكل تعبير في المفردة أو إقرار على الأصل مقصود له غرضه. [4]"ولكن جمالية القرآن وإن تعلقت بالألفاظ؛ لأنها أوعية للمعاني؛ فإنها تعلّقت كذلك بالمعاني؛ وبمعنى المعنى؛ فأي هاته المعاني قصدها الإمام الجرجاني في معرض حديثه عن أوجه إعجاز القرآن الكريم؟

---

(1) دلائل الإعجاز ص39

(2) نفس المصدر ص43، 44

(3) البيان والتبيين ص86

(4) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص4

أقسام النظـــم:

يمكن أن نقسم النظم باعتبار إعجازه إلى أربعة أقسام؛ نظم الكلمات؛ ونظم التأليف؛ وثنائية اللفظ والمعنى؛ وملاءمة المعنى للمعنى.

أولا: نظم الكلمات:

يرى الإمام الجرجاني أن الألفاظ لا يمكن أن ينسب لها النظم استقلالا عن المعنى؛ إذ الألفاظ قوالب المعاني؛ وإن حسنت باختيار الحروف؛ وخفتها على اللسان؛ يقول مؤكدا لهذا المعنى:" واعلم أنّا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة؛ وأن تكون مما يؤكّد أمر الإعجاز؛ وإنما الذي ننكره ونُفيّلُ رأي من يذهب إليه؛ أن يجعله معجزا به وحده؛ ويجعله الأصل والعمدة؛ فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات؛ ثم إنّ العجب كلّ العجب ممن يجعل كلّ الفضيلة في شيء هو إذا انفرد لم يجب به فضل البتّة؛ ولم يدخل في اعتداد بحال؛ وذلك أنّه لا يخفى على عاقل أنه لا يكون بسهولة الألفاظ وسلامتها مما يثقل على اللسان اعتداد؛ حتى يكون قد ألف منها كلام؛ ثم كان ذلك الكلام صحيحا في نظمه؛ والغرض الذي أريد به؛ وأنه لو عمد عامد إلى ألفاظ فجمعها من غير أن يراعي فيها معنى؛ ويؤلّف منها كلاما؛ لم تر عاقلا يعتدّ السهولة فيها فضيلة؛ لأن الألفاظ لا تراد لأنفسها؛ وإنما تراد أن يضم لها المعنى؛ ويدخل الخلل عليه من أجلهما [1]" فلا معنى لإيراد ألفاظ يأبى الوضع وجودها؛ ولا لمعان تساق كرها؛ وقد عبر عن هذا المعنى قبله؛ أبو هلال العسكري بقوله:" ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهراً؛ والألفاظ إذا اجترّت قصراً؛ ولا خير فيما أجيد لفظه؛ إذا سخف معناه؛ ولا في غرابة المعنى إلاّ إذا شرف لفظه؛ مع وضوح المغزى؛ وظهور المقصد [2]".

فجمالية اللفظ بجمالية المعنى؛ ويتحقق كمال الإنسجام؛ وروعة الأداء؛ مع روعة الإفهام؛ ولعل الإمام الجرجاني إنما قصد رفض تفضيل اللفظ على المعنى؛ ويؤكد هذا قوله :"وجملة الأمر أن ههنا كلاما حُسنه للفظ كون النظم؛ وآخر حُسنه للنظم دون اللفظ؛ وثالثا قد أتاه الحسن من الجهتين "[3]

---

(1) دلائل الإعجاز ص 342

(2) الصناعتين الكتابة والشعر، ص21

(3) المصدر السابق ص99

ومهما يكن فإن لجمالية المفردة القرآنية موقعا؛ لا يمكن أن يُهمل سواء في تركيبها؛ أو في إيحائها؛ أو في تصويرها الفني؛ وتناسب الحروف؛ وحفتها على اللسان؛ وجمال التصوير؛ فمفردة قمطريراً أو عبوسا تبينان شدة الهول؛ مع كآبة المنظر؛ وقد أحسنت الدراسات الحديثة في التركيز على هذه المعاني .

ثانيا نظم التأليف:

يركز الإمام الجرجاني على هذا القسم ويوليه عناية كبيرة؛ ذلك أنه لا مزية عنده للمفردات؛ إلا في حسن تركيبها واختيار مواقعها؛ يقول مبينا هذا المعنى:" وهل يقع في وهم وإن جهد؛ أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم ...وهل نجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة؛ إلا وهو يعتبر مكانها من النظم؛ وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها؛ وفضل مؤانستا." [1]

فمثل النظم في هذه الصورة كمثل الباني؛ الذي يحسن البناء؛ فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا؛ فيتّحد البناء مع بعضه ويحكم؛ والفضل في ذلك ليس لآحاد لبناته؛ وإنما لتجانسها وحسن إحكامها وقد عقد الجرجاني فصلا في هذا المجال فقال:" فصل:"في النظم يتّحد في الوضع؛ ويدقّ فيه الصّنع: واعلم أنّ ممّا هو أصل في أن يدقّ النظر؛ ويغمض المسلك؛ في توخّي المعاني التي عرفت: أن تتّحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض؛ ويشتدّ ارتباط ثان منها بأوّل؛ وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا؛ وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع بيساره هناك.نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأوّلين. وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حدّ يحصره؛ وقانون يحيط به؛ فإنه يجيء على وجوه شتّى؛ وأنحاء مختلفة[2] "

ولعلّ من الأدلة التي يستشهد بها قوله تعالى: ﴿**وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [هود 44]، فتجلّى لك منها الإعجاز؛ وبهرك الذي ترى وتسمع؛ أنك لم تجد ما وجدت من المزيّة الظاهرة؛ والفضيلة القاهرة؛ إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض؛ وأن لم يعرض لها الحسن والشّرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية؛ والثالثة بالرابعة؛ وهكذا؛ إلى أن تستقر بها إلى آخرها؛ وأنّ الفضل تَناتَج ما بينها؛ وحصل من مجموعها؟ إن شككت؛ فتأمّل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من

(1) دلائل الإعجاز ص 68
(2) دلائل الإعجاز ص68

بين أخواتها وأفردت؛ لأدّت من الفصاحة ما تؤدّيه وهي في مكانها من الآية؟ قل: ابلعي واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها؛ وكذلك فاعتبر سائر ما يليها كيف بالشك في ذلك؛ ومعلوم أنّ مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض؛ ثم أمرت؛ ثم في أن كان النداء «بيا» دون «أيّ»؛ نحو «يا أيتها الأرض»؛ ثم إضافة «الماء «إلى «الكاف»، دون أن يقال: «ابلعي الماء»، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها؛ نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها؛ ثم أن قيل:،«وغيض الماء»، فجاء الفعل على صيغة «فعل» الدالة على أنّه لم يغض إلّا بأمر آمر وقدرة قادر؛ ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: وَقُضِيَ الْأَمْرُ؛ ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور؛ وهو: اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ؛ ثم إضمار"السفينة" قبل الذّكر؛ كما هو شرط الفخامة والدّلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة «قيل» في الخاتمة «بقيل» في الفاتحة؟ أفترى لشيء من هذه الخصائص –التي تملؤك بالإعجاز روعة؛ وتحضرك عند تصوّرها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها– تعلّقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كلّ ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتّساق العجيب[1]؟"

ثالثا ثنائية اللفظ والمعنى :

ويقصد بهذا القسم، علاقة اللفظ بالمعنى؛ ويرى الإمام الجرجاني أن الإعجاز ليس مقصورا على اللفظ وحسن اختياره؛ ولا إلى المعنى؛ وإن كان المعنى هو الأصل واللفظ تبع له؛ فيقول:"ماذا أعجز العرب؟ هل أعجزهم لفظ القرآن؟ أم أعجزهم معناه ؟ لاشك أن ما أعجز العرب هو تلاقي اللفظ والمعنى"[2]

وهو بهذا يرفض مزية اللفظ على المعنى؛ بخلاف كثير ممن سبقه؛ ويعقد تلك العلاقة الجدلية بين اللفظ والمعنى أيهما أسبق؟ فيقرر أن المعاني تسبق الألفاظ من حيث الفكر؛ واللفظ تبع للمعنى؛ إذ المقصود المعاني دون الوسائل؛ ويقول :"وإذا كان لا يكون في الكلم نظم ولا ترتيب؛ إلا بأن يصنع بها هذا الصنيع ونحوه؛ وكان ذلك كله مما لا يرجع منه إلى اللفظ شيء؛ ومما لا يتصور أن يكون فيه ومن صفته ...اللفظ تبع للمعنى في النظم"[3]

وينتقد فكرة جودة اللفظ التي يقول بها كثير من الأدباء؛ لعل أبرزهم أبو هلال العسكري ت 395هـ الذي يعطي للفظ جمالا وبهاء؛ مقدما إياه على المعاني بقوله:" وليس الشأن في إيراد المعاني؛ لأن إيراد المعاني يعرفها العربي والعجمي؛

(1) دلائل الإعجاز ص46
(2) نفس المصدر ص 39
(3) الجرجاني عبد القاهر دلائل الإعجاز ص56

والقروي والبدوي؛ وإنما هو في جودة اللفظ؛ وصفائه؛ وحسنه وبهائه؛ ونزاهته؛ ونقائه؛ وكثرة طلاوته؛ ومائه مع صحة السبك؛ والتركيب؛ والخلو من أود النظم والتأليف؛ وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا[1]".

لكن الإمام الجرجاني مع نقده لقداسة اللفظ يستدل لأصالة المعاني ومكانتها فيقول:"وأوضح من هذا كله؛ وهو أن هذا النظم الذي يتواضعه البلغاء؛ تتفاضل مراتب البلاغة من أجله؛ صنعة يستعان عليها بالفكرة؛ ويستخرج بالروية؛ فينبغي أن ينظر في الفكر بماذا تلبس؟أبالمعاني أم بالألفاظ؟ فأي شيء وجدته الذي تلبس به فكرك من بين المعاني والألفاظ؛ فهو الذي تحدث فيه صنعتك؛ وتقع فيه صياغتك ونظمك؛ وتصويرك؛ فمحال أن تتفكر في شيء؛ وأنت لا تصنع فيه شيئا؛ وإنما تصنع في غيره ..."[2]

ومع صحة كلام الإمام الجرجاني؛ إلا أنه لا ينبغي أن نهمل مكانة اللفظ؛ ورونقه وجماله سواء في نظمه؛ أو سلاسته وخفة حروفه؛ أو وقعها على النفس؛ وإن كان المخاطب لا يتفاعل مع معانيها ،ولا أدلّ على هذا من سماع الأعجمي؛ وانبهاره أمام آيات القرآن؛ إذا تليت عليه؛ رغم أنه لا يفقه لها أي معنى.

رابعا ملائمة المعنى للمعنى:

يتجاوز الإمام الجرجاني بنظرية النظم التي تقوم أساسا على الانسجام؛ وحسن التركيب ودقته الألفاظ والمعاني؛ ليصل إلى حسن تجاور المعاني للمعاني؛ أو ما يسمى بتلاؤم المعنى لمعنى المعنى؛ ويوضح الإمام الرازي **606**هـ الفرق بينهما؛ بقوله :"فنعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ؛ وهو الذي يفهم منه بغير واسطة؛ وبمعنى المعنى أن يفهم من اللفظ معنى؛ ثم يفيد ذلك معنى آخر؛ واعلم أن الكناية والمجاز والتمثيل لا يقع إلا في هذا القسم ."[3]

ويؤكد الإمام الجرجاني على أهمية المعاني في النظم والإعجاز؛ فيقول:"وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم؛ وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها[4]"؛ وهذا المعنى يدل على قوة الإعجاز وإحاطة البليغ باللغة لفظا ومعنى؛ ومهما أوتي البليغ إلا وجدت التفاوت في بيانه؛ فإن أجاد في معنى؛ وجدت القصور في معان أخر؛ وقد تنبه الإمام الباقلاني إلى هذا الجانب عند تعبيره عن أوجه الإعجاز فقال:" والشاعر المفلق؛

---

(1) الصناعتين الكتابة والشعر ص57، 58

(2) دلائل الإعجاز ص52

(3) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص35

(4) دلائل الإعجاز ص44

والخطيب المصقع؛ يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور-يقصد اختلاف المواضيع من قصص ومواعظ- فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو؛ ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح...ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ؛ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها؛ فيأتي بالغاية في البراعة في معنى؛ فإذا جاء إلى غيره قصر عنه؛ ووقف دونه؛ وبان الاختلاف على شعره[1]."

فلن تجد بليغا سما ببلاغته في جانب؛ إلا انحط في مواضيع أخر؛ بخلاف القرآن؛ فإنك لن تر فيه تفاوتا؛ وإنما هو جمال التركيب؛ وروعة الأداء.

أسس الجرجاني في فهم الإعجاز:

يرى الإمام الجرجاني أن المخاطبين ليسوا في درجة واحدة في تفهم الخطاب؛ وقبول التحدي والمعارضة؛ ، نظرا لاختلاف قدراتهم اللغوية والبيانية؛ ولهذا فالحس البياني؛ والذوق الفني؛ لهما دور كبير في معرفة محاسن الألفاظ؛ وتراكيب العبارات؛ يقول الإمام الجرجاني:" فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا؛ أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة؛ ولا من حيث هي كلم مفردة؛ وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها؛ في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها؛ أو ما أشبه ذلك؛ مما لا تعلق له بصريح اللفظ؛ ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع؛ ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر[2] ".

ولا يخفى تعبيره بهذه الكلمات تروقك؛ تؤنسك؛ تثقل عليك؛ توحشك؛ ومالها من دلالات فنية؛ فلا يمكن تذوق جمالية النظم القرآني؛ إلا بحس مرهف؛ وملكة بيانية؛ ضف إلى ذلك التعلق بمعاني النحو والبيان؛ ذلك أن للنظم أسسا وقواعد لا ينبغي للبليغ أن يحيد عنها؛ ويمكن حصرها في علمي النحو والبيان؛ ولا يراد من النحو الاسم والفعل والحرف؛ وإنما معاني النحو وليس صوره الجامدة الماثلة في الأذهان؛ وفي هذا الصدد يقول الجرجاني :" أن ليس «النّظم» شيئا إلّا توخّي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم؛ وأنك قد تبيّنت أنه إذا رفع معاني النحو وأحكامه مما بين الكلم حتّى لا تراد فيها في جملة ولا تفصيل؛ خرجت الكلم المنطوق ببعضها في إثر بعض في البيت من الشعر؛ والفصل من النثر؛ عن أن يكون لكونها في مواضعها التي وضعت فيها موجب ومقتض؛ وعن أن يتصوّر أن يقال في كلمة

(1) إعجاز القرآن ص 36، 37
(2) دلائل الإعجاز ص46

منها إنّها مرتبطة بصاحبة لها؛ ومتعلقة بها؛ وكائنة بسبب منها؛ وأنّ حسن تصوّرك لذلك؛ قد ثبت فيه قدمك؛ وملأ من الثّقة نفسك؛ وباعدك من أن تحنّ إلى الذي كنت عليه؛ وأن يجرّك الإلف والاعتياد إليه؛ وأنّك جعلت ما قلناه نقشا في صدرك؛ وأثبتّه في سويداء قلبك..." [1]

منهج الجرجاني في إثبات الإعجاز:

يتبع الجرجاني منهجا في إثبات الإعجاز؛ يقوم على استقراء النصوص والاستشهاد بها ومقارنتها؛ والاستعانة بالفنقلة وأسلوب الجدل .

يستعمل الجرجاني الاستقراء كمنهج لإثبات فكرته؛ ويصرح به فيقول:"وأن الجهة التي منها يقف؛ والسبب الذي به يعرف، استقراء كلام العرب؛ وتتبع أشعارهم؛ والنظر فيها" [2]؛ كما يتتبع نظرة البلغاء في تحسين الكلام واستهجانه؛ فيقول: :"وفي نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم؛ وعابوه من جهة سوء التأليف؛ أن الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب[3]" . كما يستقرئ القرآن ليؤكد عجز العرب؛ فيقول:"فقلنا أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه؛ وخصائص صادفوها في سياق لفظه ... وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة؛ وعُشرا عُشرا؛ وآيةً آيةً؛ فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبوا بها مكانها؛ ولفظة ينكر شأنها؛ أو يرى أن غيرها أصلح هناك وأشبه[4]" وهكذا يتتبع كلام العرب تارة؛ وتارة القرآن الكريم؛ محتجا للنظم وللإعجاز؛ كما يستشهد بديوان العرب .

2-الإستشهاد :

كثيرا ما يستعين في تقرير حجته ؛ بالاستشهاد لها من كلام العرب وشعرهم؛ ويقارن بين فصيحه وقبيحه؛ ومن ذلك قوله:"ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع؛ ثم تراها بعينها تثقل عليك؛ وتوحشك في موضع آخر؛ كلفظ الأخدع[5]:-في بيت الحماسة-

تلفتُ نحو الحي حتى وجدتُني وجعتُ من الأنصار ليتاً وأخدعا

---

(1) نفس المصدر ص344

(2) دلائل الإعجازص41

(3) نفس المصدر ص84

(4) نفس المصدر ص39

(5) الصمة عبد الله القشيري، ص 111

وبيت البحتري [1]:

وإني وإن بلَغتني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدَعي

فإنَ لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن؛ ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام[2] :

يا دهرُ قوم من أخدعيك فقد أضجَجت هذا الأنام من خُرُقك

ولكن خفة اللفظ وثقله في هاته الكلمة؛ إنما يرجع إلى تصريف الكلمة ؛ لا للكلمة في حد ذاتها؛ فمن الألفاظ ما يحسن مفردا؛ ويستقبح جمعا؛ أو مثنى ؛ قال صاحب المثل السائر:" ألا ترى أنه وجد لهذه اللفظة في بيت أبي تمام من الثقل على السمع؛ والكراهة في النفس ؛ أضعاف ما وجد لها من بيت الصمة بن عبد الله ؛ من الروح والخفة؛ والإيناس والبهجة؛ وليس سبب ذلك إلا أنها جاءت موحدة في أحدهما؛ مثناة في الآخر؛ وكانت حسنة في حالة الإفراد؛ مستكرهة في حالة التثنية؛ وإلا فاللفظة واحدة؛ وإنما اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى [3]"

3-أسلوب الجدل والفنقلة:

يركز الجرجاني كثيرا على دور العقل في إدراك هذه المعاني؛ والمتصفح لكتاب دلائل الإعجاز يجد الجرجاني كثيرا ما يستعمل لفظ العقل؛ أو ما يدركه العاقل؛ أو مالا يجهله عاقل؛ سواء في معرض حديثه عن الإعجاز؛ أو في كيفية إدراكه؛ ومن نماذج ذلك؛ قوله:" واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك؛ أن لا نظم في الكلم؛ ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض؛ ويبنى بعضها على بعض؛ وتجعل هذه بسبب من تلك؛ هذا ما لا يجهله عاقل؛ ولا يخفى على أحد من الناس".[4]

وينطلق الجرجاني من عقلية فلسفية تستعمل المنطق والحجاج والمجادلة في إثبات نظرته؛ ومن ذلك أسلوب الاستفهام والجواب عنه؛ كقوله :"وهل يقع في وهم وإن جهد ...وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة... وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة... وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى:" وقيل يا أرض ابلعي ماءك وياء اقلعي وغيض الماء وقضي

(1) ديوان البحتري ص1241

(2) ابن أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ج 2ص405

(3) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ج1ص277.

(4) عبد القاهر دلائل الإعجاز، ص55.

الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين ..."[1]، كما أنه يستعمل الفنقلة ومن ذلك :"فقيل لنا قد سمعنا ما قلتم؛ فخبرونا عنهم؛ عماذا عجزوا؟ أعن معان من دقة معانيه؛ وحسنها؛ وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ فإن قلتم عن الألفاظ؛ فماذا أعجزهم من اللفظ؟أم ما بهرهم منه؟ فقلنا أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ..."[2]، ومن ذلك أيضا قوله: "فإن قيل النظم موجود في الألفاظ على كل حال؛ ولا سبيل إلى أن يعقل الترتيب الذي تزعمه في المعاني ... قيل إن هذا هو الذي يعيد هذه الشبهة جذعة أبدا".[3]

وهكذا يحتج الجرجاني بأدلة يجمع فيها بين العقل؛ والذوق الجمالي؛ والاستشهاد بكلام العرب والبيانيين؛ مبرزا آراءه؛ رافضا أي تقليد للسابقين؛ جامعا بين معاني علم النحو؛ وعلم البيان؛ وإن غلب علي منهجه النزعة الجدلية؛ العقلية؛ نظرا لواقعه؛ وكثرة الفرق؛ ويبدو أن انتماءه العقدي أثر عليه كثيرا في مناقشته وجدله .

خاتمـــة

وفي ختام هذا المقال يمكن القول أن نظرية النظم وجدت قبل الجرجاني؛ ولكن بمفهوم التأليف في الغالب؛ وقد ظهر جليا تأثر الجرجاني بمن سبقه؛ غير أن له الفضل في تطوير نظرية النظم والدفاع عنها؛ وإظهار وجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم؛ متجاوزا الصراع بين اللفظ والمعنى؛ ليصل إلا أن الأفضلية ليست للألفاظ ولا للمعاني؛ وإنما في حسن النسق؛ والتركيب؛ على أن العلاقة بين اللفظ والمعنى هي علاقة وسائل ومقاصد؛ فالألفاظ وسائل لمقاصد المعاني؛ وقد اعتمد في إثبات فكرته على الإستقراء؛ والمنطق؛ والجدل؛ والإستشهاد بالنصوص؛ ولا تزال هذه النظرية محل بحث؛ إذ تحتاج إلى تأسيس قواعدها؛ ووضع أسس لها؛ نظرا لأهميتها ومكانتها في تجلية الإعجاز؛ غير أنه لا يمكن حصر إعجاز القرآن في نظرية النظم فحسب؛ فوجوه إعجاز القرآن كثيرة؛ وأنى للعقل البشري أن يحيط بآيات الله علما؛ أو يدرك كنه كلام رب العالمين؛ الذي لا تنقضي عجائبه؛ ولا تحصى جواهره؛ ولا تعد دروره.

---

(1) نفس المصدر، ص44 ،45.

(2) دلائل الإعجاز ص39.

(3) نفس المصدر ص51، 52.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن الأثير ضياء الدين،المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت 1995م

2. الباقلاني أبو بكر إعجاز القرآن، ت أحمد صقر، دار المعارف مصر، بدون سنة الطبع

3. الجاحظ، البيان والتبيين ت المحامي فوزي عطوي، دار صعب بيروت، ط الأولى 1968م/1388هـ

4. الجرجاني عبد القاهر ،دلائل الإعجاز، ت محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، بدون سنة الطبع

5. أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ت أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، 1420هـ/2000م

6. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ت مصطفى بن عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت 1413هـ/1992م

7. أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ت نعيم زرزور، المكتبة المصرية، ط الأولى، 1426هـ- 2005م

8. الحموي ياقوت، معجم البلدان، دار الفكر بيروت، ط الثانية، 1995م/1416هـ

9. ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ت محمد عبد عزام، دار المعارف، ط الرابعة، بدون سنة الطبع

10. ديوان البحتري ت حسن كامل الصيرفي، دار المعارف مصر، ط الثالثة، بدون سنة الطبع

11. الذهبي شمس الدين، سيرأعلام النبلاء ت مجموعة من المحققين تحت إشراف شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرسالة، ط الثالثة، 1405هـ/1985م

12. الرازي فخر الدين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز دار صادر بيروت ط الأولى 1424هـ /2004م

13. السامرائي فاضل، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، شركة عاتك للطباعة والنشر، القاهرة، ط الثانية، 1427هـ-2006م

14. السبكي تاج الدين ،طبقات الشافعية ،ت د محمود محمد الطناحي،د عبد الفتاح الحلو،هجر للطباعة والنشر، ط الثانية، 1413هـ/1992م.

15. الصفدي صلاح الدين خليل، الوافي بالوفيات، ت أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت 1420هـ /2000م

16. الصمة عبد الله القشيري، ت خالد عبد الرؤوف الجبر، دار المناهج، الأردن، سنة الطبع 2003م/1423هـ

17. العسكري أبوهلال، الصناعتين الكتابة والشعر، ت علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط الأولى 1371هـ1952

18. محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ت إحسان عباس، دار صادر، بيروت.